The Theme of the Body in the Novel “El-Zendjia” by Aisha Bannour

Received: 10/02/2025; **Accepted:** 14/05/2025

مريم بوزردة[1*]، صفية بوقصيبة[2]، آمنة عنوش[3]

1 المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبّار، قسنطينة (الجزائر).bouzerda.meriem@ensc.dz
2 المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة (الجزائر).s.bouksiba@centre-univ-mila.dz
3 المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة (الجزائر).a.annouche@centre-univ-mila.dz

ثيمة الجسد في رواية "الزنجية" لعائشة بنور

ملخص

خطت الرّواية النسوية خطوات جبّارة للتعريف بالقضايا والأدوار الجندرية؛ إذ تعدّدت موضوعاتها وتنوعت أساليبها وطرائق عرضها، وغدت تيمة الجسد وتمثلاته من أكثر الموضوعات حضورا في الرّواية العربيّة عامّة والجزائريّة خاصة، حيث شكلت محور الأعمال الفنية رؤية وتشكيلا. وتهدف الدّراسة الكشفَ عن شتى التصورات الثقافية والأنساق المضمرة لتمثلات الجسد الأنثوي في ظل سلطة المجتمع الذكوريّ ضمن منعطفات السرد في رواية "الزنجية" لعائشة بنور.

الكلمات المفتاحية:

جسد؛
ختان البنات؛
رواية الزنجية؛
سلطة ذكورية؛
اغتراب.

Abstract

The feminist novel has made significant strides in highlighting gender issues and roles, as its themes have multiplied, and its methods and styles of presentation have diversified. The theme of the body and its representations has become one of the most prominent topics in Arabic novels in general and Algerian literature in particular, where it has formed the central focus of artistic works in both vision and representation. This study aims to uncover the various cultural perceptions and implicit systems underlying the representations of the female body under the dominance of a patriarchal society, as portrayed in the narrative turns of the novel *"Al-Zandjia"* by Aisha Benour.

Keywords:

Body;
Female circumcision;
“El-zendjia” novel;
Male authority;
Alienation.

* Corresponding author, e-mail: bouzerda.meriem@ensc.dz

Doi: https://doi.org/10.34174/0079-036-002-060

© Constantine 1 University, Algeria, 2025.

I - مقدمة

شغلت المرأة بحضورها في الأدب العربي القديم عامة، وفي الشعر الجاهلي خاصة حيزا كبير عند الشعراء؛ حيث شكّلت محور اهتماماتهم من خلال ذكرها في أشعارهم لما لها من أهمية في حياة الإنسان الجاهلي، فتجلت صورة المرأة حبيبة وخليلة لا يمكن الاستغناء عنها، وهو ما تجلّى في المقدّمات الطلليّة التي جسّدت مشاعر الحزن والغربة التي اكتوى بنارها الإنسان والشاعر على حدّ سواء.

اختلفت نظرة الشعراء إلى المرأة في العصر الأموي بين الغزل العذري، والماجن، ثم كان لانفتاح الدولة العباسية على الأمم الأخرى طريق آخر للتعبير عنها من خلال حضورها معشوقة ومغنية. أما في الوقت الراهن فقد أضحت المرأة حالة من حالات الفتنة باعتبارها أسلوبا من أساليب الإغراء لدى كثير من الرجال، لاسيما صور عرضها بين جسد فاتن تارة، وعارٍ تارة أخرى، ثم تطور الأمر إلى النقيض عند بعض الثقافات، وموورست عليها أشكالٌ من الاحتقار والدونية، إذ تعرضت للإهانة من خلال ممارسات تعسفية على جسدها مثل ختانها عند بعض الشعوب، ناهيك عن التهميش ووصفها بالضعف والقصور والاشمئزاز من لون بشرتها، وجعلها هدفا ومطمعا حُصر في الشهوة واللّذّة.

ومما نلحظه من اتصال وثيق بين الواقع والرواية؛ نجد أن كثيرا من الأدباء الذين اتخذوا من جنس الرّواية وسيلة للبثّ في قضايا المرأة، ولم ينحصر عند الروائيين من الرجال -فقط- بل تعدّاه ليكون القلم نسويا، معبرا على لسان حالها، والمدافع المنافح عنها في ظلّ هيمنة السلطة الذكوريّة التي تجعل من المرأة هامشا، وتابعا، وظلا للرّجل؛ فظهرت الرّواية النسويّة في محاولة لفضح المسكوت عنه والخوض في الطابو داخل سياقات اجتماعية وثقافية معقدة، بغية إخراجها من دوائر الهامش وتقويض مركزية السلطة الذكورية إلى محاولات التعريف والتغيير. ومن بين القضايا والإشكالات التي خاضت فيها أقلام الرواية النسوية: مواضيع الجندر والهوية الجنسية، التشرد، ختان البنات، تيمة الجسد، ولون البشرة.

تعدّ عائشة بنور من الرّوائيات العربيات اللواتي برزن في السرد النسويّ الجزائري، حيث جعلت من المرأة موضوعا أساسا في كثيرٍ من رواياتها، ولعلّ أبرزها رواية "الزنجيّة"؛ أين سلّطت الضوء على قضيّة الجسد المعطوب والمستباح.

لقد أضحى الجسد في السّرد الجزائري المعاصر يضاهي الكتابة الكاشفة؛ بانتقاله من حدود الجماليات إلى فضاءات التجديد والتوعية؛ بعدّه آلية من آليات التشخيص للواقع الهوياتي، والوجود الذّاتي، والجماعي في المجتمعين الواقعي، والواقع-نصي، فالجسد في الدّراسات السّردية النسويّة المعاصرة يعرف حضورا لافتا وبنّاءً؛ إذ يقلب الموازين باستثماره الجانب المادي الغريزي، والنّفسي الباطني على حد سواء، إذ يرتكز عليهما ليكشف عن تراكمات الحياة فوق مساحاته.

ومن هذا المنطلق، تروم الدّراسة استكناه تمثلات الجسد واستخراج الدّلالات والأنساق الثقافية المضمرة المرتبطة به في الرّواية النسوية العربيّة عموما، والرّواية النسويّة الجزائريّة خصوصا، متخذة من رواية "الزنجيّة" لعائشة بنور نموذجا للدراسة والتحليل، وبناء على ما سبق أثارت الرّواية بعض التساؤلات لعلّ أبرزها: ما تمظهرات جسد المرأة في رواية "الزنجيّة" لعائشة بنور؟ هل يتحكّم الجسد وحده في تشكيل الهوية الأنثوية؟ وما موقف الجسد الأنثوي من السلطة الأبويّة السائدة في معيار الثقافة الشعبيّة؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة تمّ تقسيم هذه الدّراسة إلى: مقدّمة، ثمّ موجزا بأهمّ أحداث الرّواية، ليتمّ بعدها ترتيب عناوين الدراسة والمتمثلة في استخراج تمثلات الجسد انطلاقا من عناوين جزئيّة: العنوان والغلاف ومتن الرّواية، ثم تليها: الأنوثة المبتورة، والأمومة المفقودة، وغربة الجسد بعد الهجرة غير الشرعيّة، وأُتبعت الدراسة بأهمّ النتائج المتوصّل إليها بعد التحليل. وقد تم الاعتماد على بعض آليات المنهج السيميائي والقراءة الثقافية والمنهج النفسي للإجابة عن التساؤلات المطروحة والبحث عن دلالات توظيف الجسد في رواية "الزنجيّة".

II- مُلخّص الرواية:

أدخل هنا الطريقة والأدوات المستخدمة بنفس التنسيق المعتمد (الخط، المقاس، البعد بين السطور) ؛ يوضح مؤلف المقال في هذا القسم، بوضوح كيفية إختيار العينة، تحديد المتغيرات وكيفية قياسها، طريقة جمع البيانات ووصف كيفية تلخيص المعطيات (المتوسط، نسبة مئوية،...)، الأدوات الإحصائية والقياسية المستخدمة في تحليل المعطيات وإختبار الفرضيات وتحديد المعنوية الإحصائية، وأحيانا قد يكون من الضروري ذكر البرامج المستخدمة في الحساب ؛ وعند إستخدام طريقة مستخدمة من قبل ومنشورة في أباحث أخرى يمكن الإشارة فقط إلى تلك الطريقة في التهميش دون إعادة وصفها من جديد، وإن كانت هناك تعديلات في الطريقة، يجب تبيان ذلك وتعليل

يجب عرض هذه الطرق والأدوات بدقة ووضوح دون إسهاب بحيث يتمكن الباحثون الآخرون من إعادة الدراسة أو التحقق منها، ويمكن للمؤلف أن يصف الأدوات والطرق المستخدمة في شكل مخطط، جدول أو رسم بياني لشرح الأساليب التي استخدمت، في حالة التعقيد فقط، بغرض التبسيط؛ ويمكن تقسيم هذا القسم إلى أقسام فرعية، حيث تختلف محتوياته وفقًا لموضوع المقالة.

III- تمثلات جسد المرأة في رواية الزنجيّة:

تكشف القراءة التحليلية والثقافية لرواية **"الزنجيّة"** لعائشة بنور منذ اللحظة الأولى على أننا أمام عمل روائي أنثوي مدهش، ويتجلى ذلك في مختلف الأنماط السردية التي لونت بها الكاتبة صورة المرأة. لهذا جاءت حاملة لمشروع الدفاع عنها بوصفها أنثى لها كل مقومات التميز والحياة، لكن الواقع يقدمها على أساس مختلف، من خلال هذه الألوان التي تبدو عليها صورة الزنجية المستلبة.

1- الجسد في عتبة العنوان:

يعدّ العنوان أول ما يلفت انتباه القارئ في الكتاب/ الرّواية؛ حيث يُمثّل أولى عتبات النّص لكونه خطابا مختزلا " قائما بذاته له قوانينه التي تحكمه، ولا غرابة في ذلك ما دامت العتبات في حقيقتها تصير بمثابة نصّ موازٍ للمتن" (بلال، 2000، صفحة 16). وعليه، يكتنز العنوان الكثير من الدّلالات والأنساق المضمرة، ليُمثّل "أعلى اقتصاد لغويّ ممكن يُوازي أعلى فعاليّة تلقٍّ ممكنة تُغري الباحث والنّاقد بتتبع دلالاته" (قطوس، 2002، صفحة 06). وفي غلاف الرّواية كُتب العنوان " الزنجيّة " بخط أسود غليظ ذو حجم كبير وفي الأعلى منه قليلا بحجم صغير جدّا كلمة "رواية"، وتطالعنا هذه العتبة النصيّة بلفظ صريح أحادي الدّلالة يحيل إلى الزنوج، وهي تسمية تاريخية للجنس البشري المتميز بالجلد الأسود والشّعر المجعّد، والشفة الغليظة، والأنف الأفطس، يسكن حول خط الاستواء، وتمتد بلادهم من المغرب إلى الحبشة، وبعض بلادهم على نيل مصر. وما يؤكّد على ذلك أن رسم العنوان كان بأسود داكن، وفي التعريف بـ"أل" إزالة لأيّ غموض والتباس؛ ليُحدث بذلك تعالقا بين الرّسم والمعنى.

فكلمة **الزّنجيّ** عموما تحمل دلالة سلبيّة لمّا مرّ به سكّان إفريقيا على مرّ العصور من العبوديّة والرقّ، وقد أضيفت تاء التأنيث في عنوان الرّواية، لتدلّ على موضوع المتن وهو (المرأة ذات البشرة السّوداء)، ليضاف إلى الاستعباد والذل والمهانة قضيّة (الختان) التي كانت تتعرّض له فتيات النيجر وهنّ في عمر الزهور، وتلك العادات البائسة التي حوّلت حياتهنّ إلى جحيم، فرافقتهن عقدة النّقص والعار أينما توجّهن، وكأنّهن عوقبن على جريمة كونهنّ فتيات، ويجب التكفير عن ذنبهنّ باقتطاع جزء من عضوهنّ التناسليّ، ولذلك كانت "بلانكا" تصف نفسها بالجمال دائما لتقنع نفسها مهما كانت درجة لون بشرتها، أو اقتطاع جزء منها فهي تظلّ جميلة، جميلة رغم قساوة الحياة، ورغم القمع الاجتماعيّ والقهر الاقتصادي، فبقيت صامدة ضدّ مصاعب الحياة، وهذا ما تبوحُ به في قولها: "لم تلعب الرّياح بخصلات شعري الفاحم، المتجعّد، ولم ألبس حذاءً بكعب عالٍ، أو فستانا موشحا بالأزهار، ولم أصبغ وجهي بألوان الفرح كما تفعل عارضات الأزياء اللاتي كنتُ أرى صورهنّ في مجلات ممزّقة" (بنور، 2020، صفحة 13)، فرغم قساوة الحياة في قرية "أرليت" تشبثت بالحياة.

ولقد كان العنوان مؤلّفا من كلمة واحدة وهو اسم مرفوع موقعه من الإعراب مبتدأ، ويدلّ الاسم على الثبات، وفي هذا دلالة على أنّ هذه الصفة واللّون تحديدا ظلّ ملازما ولصيقا بشخصيّة "بلانكا" أينما ذهبت وحلّت، لون مرادف لهويتها الإفريقيّة. ويشي اللّون الأسود بالدّمار النّفسي، والموت موت الأحلام البريئة التي كانت تحلم بها ككلّ فتاة في عمرها، توحي بالحزن والتشظّي النّفسي الذي كانت تعاني منه المرأة الإفريقيّة، وكأنّ هذه المرأة قد كُتب عليها الشقاء أبد الدّهر.

أمّا الصّفحة الأولى بعد الغلاف، فهي "من أقرب العتبات الخارج نصيّة للعمل ومضمونه، لأنّ الكاتب غالبا ما يتقصّد اختيار مقولات يجد فيها ضالته في إيصال شعاع نصه إلى القارئ" (السامرائي، 2015، صفحة 105)؛ فتتوشّح البياض ليكون عنوان الرّواية **"الزنجيّةُ"** باللّون الأسود أسفل الورقة، ليبوح تموضع العنوان بهذا الشّكل بالتهميش والدونيّة الذي تعاني منه المرأة الزنجيّة سواء في موطنها، أو في المكان الذي هاجرت إليه، واحتقار الجسد الأبيض للجسد الأسود، وهذا ما عانت منه البطلة "بلانكا" وعائلتها في مدينة البليدة الجزائريّة.

وتوحي دلالات البياض غالبا بالإيجابيّة، ونجدها تتراوح بين النّقاء والصفاء والهدوء والسلام، إلا أنّ توظيفه ضمن السرد يكشف عن أنساق مضمرة سلبيّة تخفي الهزيمة والاستسلام والموت، فالكفن لونه أبيض، وراية الهزيمة بيضاء.

لقد انبعثت رائحة الموت من قرية "أرليت" وبات الاستسلام في وجه العرف الاجتماعي الظالم، وتأييد سلطة العادات الذكوريّة المترسّخة في هذه المجتمعات واقعا ممثّلا في أمّ "بلانكا" والعجوز "مو" المؤيّدتين للنسق الأبويّ، والقيم الذكورية التي ترى في الجسد الأنثوي امتدادا لسلطة الأسرة والمجتمع **"رفعت الرّاية البيضاء أي الاستسلام وإعلان الطّاعة"** (عمر، 1982، صفحة 70)، والهزيمة في مواجهة الآخر الذي ينظر إلى جسد الزنجيّ عموما والزنجيّة خصوصا نظرة عرقية تاريخية متعلقة بالعبودية والاستغلال الجسدي، مما يضيف إلى كونه ناقلا للأمراض الفتّاكة والموت، طبقة إضافية من القهر.

2-صورة الجسد في الغلاف:

عادة ما يكون بين العنوان والصورة علاقة وطيدة، إلا أنّ الرّوائيّة تكسر أفق انتظار القارئ في صورة غلاف الرّواية المخالف للعنوان **"الزنجيّة"**. ولكن عتبة الغلاف فتحت الباب على مصراعيه لأفق تعدد الدّلالات، فالواجهة الأمامية لهذه الرواية كانت صورة لامرأة تغوص في جمال يسبح في أفق تموجات الذاكرة، فالمرأة ناصعة البياض بشعر أسود كثيف مستقيم من شدة نعومته تراه يرتفع ليسبح في فضاء الوجود الواسع بعينين مغمضتين حالمتين، مما قد يوقع القارئ – حسب سوزان لوهافر–في صدمة وجودية عظمى. فهل هذه الزنجيّة تحلم ببياض ناصع؟ أم هو مجرد انعكاس لدهاليز الذات؟ فالبياض في الغلاف امتداد من الوجه إلى الرقبة ثم تغور تفاصيل الصدر في غيمة بيضاء وحيدة حالمة سابحة في فضاء أزرق فيروزي غالبا "يوحي بالاستقرار والهدوء والرّاحة للنّفس" (العنوز، 2024). وتستحضر هذه الصورة صور الغيوم الناصعة التي تسافر من مكان إلى مكان دون قيود أملا في تشبع قد يجعل منها غيمة مثقلة ذات مطر نافع، فهل تحقق ذلك؟

وقد يحيل بياضها إلى نقاء القلب الذي ينعكس على الوجه صفاء وبساطة، أو ليس الوجه انعكاسا لما هو في القلب؟

يوحي مشهد الصورة الحالمة للبطلة بأفق مبهم تقع فيه ولا تتوقعه، يخرقه بعض اللطخات السوداء أعلى الرأس وألف ولام طويلتان ترتفعان عمودين بشوكتين ينغرسان في الحلق على مستوى الرقبة، هذان القيدان سيتبعانها ويحطمان توقعاتها ويبطلان سحر الهجرة التي تأملته خيرا عليها وعلى أختها وابنتها، وستبقى لطخة اللون سجينة تاريخ عبوديتهم الذي لازمهم وألزمهم نظرات الاستهجان والتهميش والتمييز العرقي.

وعلى الرغم من أنّ تمثلات النسق الثقافي للعنوان توحي بمقاومة ثقافية؛ أي بوحٌ بصراع الاختلاف، وهذا ما يوقع في الغموض، ولذلك يمكن أن نطلق مصطلح "الصورة الحلم" على عتبة الغلاف، وهي صورة ديناميكية نشطة تدفع الذّات إلى ارتداد المجهول، والبحث في مكامن أسرار يصدم فيها الوعي بالأنا في غياب الوعي بالذّات، فيرتفع صوت التشظي وتتموج الصورة بين الانفتاح والانغلاق، فعند ولوج عالم النص تستقبلك الثنائية الضدية (الزنجية/ بلانكا).

فبلانكا حسب النسق السردي في الرّواية فتاة زنجيّة نيجيرية تتعرّض لعملية ختان الأنثى، ولكن دلالة الاسم في اللّغة اللاتينيّة هي البيضاء الشقراء. ولعلّ أكثر عبارة تكررت في الرّواية على لسان "بلانكا" تلك العبارات من أشعار الرّئيس السنغالي "سنغور": **"ولأنني سوداء البشرة فأنا جميلة"** (بنور، 2020، صفحة 47)، في محاولة من بطلة الرّواية لمحو ذلك التصوّر العنصري لذوات البشرة السّوداء، فهذه الكلمة تختزن ذلك التاريخ الطويل من التهميش والعبوديّة والتمييز والتصفية التي انتُهجت ضدّ السكان الأصليين لقارة إفريقيا. من جهة أخرى يبوح طغيان ضمير المتكلم في العبارة متصلا بـ(ياء المتكلم)، ومنفصلا بـ(أنا) ببوحٍ وجوديٍّ لتحديد إحداثيات الأنا، و"جميلة" اسم مشتق، وفي الاشتقاق توالد للدّلالات والمعاني، فهو صفة مشبهة دالة على الثبات والدوام؛ أي إنّها في متخيلها السّردي تبوح بجمالها الزنجيّ الراسخ والثابت في عالم متعدد الألوان، وتحلم بحقوق التعددية بعيدا عن التعسفية والعنصريّة.

وإذا عدنا إلى البقع السوداء فوق رأس البطلة نتساءل: هل تعني اللطخات السوداء مشهدا سوداويا لصيقا بجسدها؟ هل لأنّها أنثى كانت وصمة عار لطّخت عرف القيم الذكورية ووجب استئصال ما يدلّ عليها؟

لقد غُسِل حق الأنثى في جسدها باستئصاله، ودُفِنت شهوتها مخافة العار والفضيحة بقطع جزء منها، لقد حُوّل الجسد إلى كيان يرمز للشرف والعرض، ولذلك فهو وسيلة لضبط السلوك الأنثوي من خلال مفاهيم العيب والحرام.

وقد تدلّ تلك البقع السّوداء على الكتمان والصّمت، فالبطلة "بلانكا" كانت تصارع العادات التقليدية في عقلها، ولم تقو على مواجهتها، لدا اختارت تحدّي الهجرة غير الشرعيّة من قريتها، محافظة على أجزاء شقيقتها وابنتها، طلبا للتحرر من سلطة ورقابة العرف والقبيلة. وربّما تشي هذه البقع بالدّم المتناثر على تلك الطاولات، وقد لوّن الدّم هنا بالأسود، ليدلّ على العار الذي طال القرية باستمرار هذه العادات في ظلّ غياب الوعي وردع هذه الطقوس، ليبقى قيدا وعقدة نفسية ملازمة لها في سيرورة الحياة.

ما يُثير انتباه القارئ في صورة الغلاف أيضا وجود رأس المرأة دون الجسد، وفي هذا البتر علامة على هواجس البطلة "بلانكا" التي شعرت بالنّقص وضبابيّة جسدها ببتر جزء منه، وكأنّ ذلك الجسد اختفى واختُزِل بدفن جزء من عضوها. وفي المقابل تقويض لـ "التصور الثقافي الذي يرى أنّ جسد المرأة خالٍ من العقل" (بن السايح، 2005، صفحة 66)، لأنّها تتبع عاطفتها وشهوتها، وكأنّ برسم الرّأس/ العقل رفض للثقافة الأبوية الذكوريّة التي تنظر إلى المرأة بأنّها جسد دون رأس وعقل بإثبات العكس، عن طريق اختيار المنفى والغربة ورفض البقاء في تلك القرية التي تُرسّخ عادات مقيتة، تنظر إلى جسد الفتاة الصغيرة بأنّه مجرّد شهوة.

3-الأنوثة المبتورة:

• نسق القيم الذكورية:

من العادات الاجتماعيّة المفروضة والتي كانت تُمارس على الفتيات الصغيرات في بعض المجتمعات الإنسانيّة قضيّة **الختان**، ومن بين هذه المجتمعات النيجر، وهو طقس تقوم به امرأة كبيرة في السنّ يترتّب عنه الموت عادة، أو عيش الفتاة في صدمة نفسيّة إذا بقيت على قيد الحياة. وتنتقل الصّدمة -بعدها- إلى الخوف من الحبّ والزواج والإنجاب، لأنّ "استيعاب طرق التواصل الجسدي في علاقة الفرد بالعالم لا ينحصر في مرحلة الطفولة بقدر ما يستمرّ طيلة الحياة" (لوبوترون، 2014، صفحة 19)؛ فصورة تلك العمليّة تبقى راسخة في ذاكرة الفتاة إلى حين موتها، إنّها صورة الألم التي صاحبت "بلانكا"، ومقدر أنه سيكون مصير شقيقتها وابنتها يوما ما، ومصير كلّ فتاة زنجيّة في النيجر **"في أعماقي، كنت أدرك أنّ كلّ النّساء هنا في النيجر يشعرن بالتعاسة والقهر مثلي تماما. تعاسة تنمو رويدا رويدا مع نموّ أجسادهنّ الصغيرة، وفي الانتظار شفرة السّكين لتكتم صرخاتهنّ"** (بنور، 2020، صفحة 19)، إنّه اليأس وخوف الترقّب وعدم الأمان، تستمر معها الكوابيس وتتحول إلى نوبات فزع تنتابها وتوقظها، لم تنس ولو للحظة قطعة جسدها المبتورة، لقد مثلت بالنسبة لها حلمها الضائع بعيش حياة طبيعيّة رفقة زوجها "فريكي".

لقد كانت هذه العمليّة أحد الأسباب أو لعلّها السبب الرّئيس الذي أدّى بـ "بلانكا" لموافقة زوجها "فريكي" للرّحيل من النيجر إلى مكان آخر، حتّى لا تعيش أختها وابنتها الألم نفسه، تعترف بذلك **"فكنتُ أسافر بذنب أنوثتي التي كانت تستصرخ من ألم شفرة السّكين"** (بنور، 2020، صفحة 52)، إنّه ذنب الأنوثة والجسد الذي لا تعترف به سلطة الأب كاملا.

وتمثّل العجوز "مو" مع الرّجلين اللذين اقتادا "بلانكا" السلطة الأبويّة الذكوريّة وسلطة العادات التي تُهمّش الآخر/المرأة، وتُحاول تقزيمها في صورة الشّهوة والجسد، بل وتلغي حقّها في الوجود، وتجعل منها مجرّد تابع للعادات والتقاليد المتجذرة في الضمير الجمعي، تبوح بذلك البطلة في قولها: **"أغلال المكان التي تُحاصرني بفكر واحد لا يُؤمن بالتعدّدية، لأنّها في الأصل لا توجد"** (بنور، 2020، صفحة 68)، فالمكان الذي يُمثّل هويّة الإنسان تحوّل إلى قيود شوّه جسد المرأة وسحقه تحت وطأة الأعراف الاجتماعية.

• نسق الموت والألم:

في أحد المونولوجات تكشف "بلانكا" عن حزنها الدفين ومأساتها منذ أن وعت الحياة **"فالحياة هنا قد هزمتني منذ نعومة أظافري وسرقت ابتسامتي كطفلة تُعانق الحزن والألم منذ صرخاتها الأولى على شفرة السّكين"** (بنور، 2020، صفحة 13)، لقد حملت هذا الهمّ إلى أن تحولت إلى امرأة ناضجة، لكنّ الحادثة لم تفارقها أبدا **"بعد ثلاث**

وعشرين سنة ما زالت بلانكا الطفلة التي وأدوا أنوثتها، ودفنتها معها لحظة صراخها" (بنور، 2020، صفحة 26)، لقد صاحبها هذا الألم إلى بقيّة حياتها.

لقد كانت بعض الفتيات لا تتحمّل العمليّة وتموت بسبب النّزيف على تلك الطاولة، أو طاولة الولادة، ومنهنّ من كانت تعاني من النّفور من أزواجهنّ خوفا من الألم، أمّا "بلانكا" انتابها الخوف من ممارسة أبسط العمليات البيولوجيّة. لقد كانت تحرم نفسها من شرب الماء حتى لا تتبول وتشعر بالألم، يا للمعاناة التي كانت تعيشها "بلانكا" والمرأة التي تتعرّض للختان عموما، فما الجريمة التي ارتكبتها هذه المرأة سوى أنّها أنثى؟ لها جسد أنثويّ في مجتمع يخنقها بسبب أعضائها، ويكيل لها بمكيال الضبط اقتطاع جزء منها بسبب سلطة المجتمع الذكوري.

تتواصل تنديدات "بلانكا" لتنتقل هذا المرة إلى أمّها فترمقها بنظرة لوم وعتاب، وتسائلها عن طبيعة الأمّ التي تدافع عن أولادها حتّى الموت، فكيف استطاعت أن تتركها فريسة هذا المصير؟ وتساءلت في نفسها عن سبب وحشيّة العجوز "مو" التي جعلتها تُقدم على هذا الفعل، وكيف لامرأة لا تحسّ بضعف وألم امرأة مثلها؟ **"ألا تشعر هذه العجوز بما أحسُّ، وهي تُمسك بشفرة السّكين؟ هل هي فرحة لوجعي؟ أم أنها تنتقم مني دون سبب، وتقتل شهوة الأنثى فيّ قبل أن أكبر"** (بنور، 2020، صفحة 25)، هذا هو تصوّر المجتمع الذكوري الشعبيّ لجسد المرأة، تُميت فيه الشهوة والحبّ عند البلوغ، وتُمارسُ القمع على الأنثى عن طريق تطهير خطيئة الجسد الأنثوي بالبتر.

ضاعت أحلام "بلانكا" البسيطة، وذهبت براءة الطفولة، لتتغيّر نظرتها إلى الحياة بين عويلها وصرخاتها من جهة، وتلك الحفلة التي أقيمت لها مع رفيقاتها لاقتطاع جزء منهنّ، لقد كانت خائفة بسببه ألّا يحبّها ولا يرغب في الاقتراب منها أحد. لقد نظرت إلى نفسها نظرة دونية ونظرة نقص، باقتطاع ذلك الجزء **"اليوم أنا الطفلة الصغيرة الكبيرة التي نضجت قبل أوانها.. أنت الآن امرأة، لا أحد سيقترب منك؟!"** (بنور، 2020، صفحة 25، 26.)، لقد وصفت نفسها بأنّها تحولت إلى امرأة مبتورة، لقد أحسّت بالموت **"لكن شيئا ما في جسدي قد مات؟ هذا ما كنتُ أشعر به كلّ حين"** (بنور، 2020، صفحة 44)، إنّه شعور بالنّقص بفقد ذلك الجزء.

• نسق الصمت:

احترفت "بلانكا" الصمت وتوشّحت الوجع **"كنت أودّ أن أخبرها بأشياء عديدة، لكنّني كنت جريحة، مثقلة الرّأس والركبتين، مقهورة على شفرة الوجع"** (بنور، الزنجية، 2020، صفحة 17) تضيف **"فتتكوّم خيباتي أمام هذا الوجع الذي لا ينتهي"** (بنور، 2020، صفحة 16)، تواصل **"تحوّل وجه طفلة صغيرة إلى امرأة يافعة قبل الأوان، تخترق جسدها قشعريرة باردة أرعشتها بقوة، وهي تكتم أو تحاول أن تكتم شهقة تحاول أن تدوي في فضائها القاحل، فامتقع لون وجهها، كاشفا وجعها"** (بنور، 2020، صفحة 22). إنّ شفرة السّكين الحاد مزقت جسدها الذي تدرك من خلاله وجودها وكينونتها، فأصبحت عدما تجاوز الصمت إلى الكتمان، تحاول البوح، ولكنّ أن المصدرية في قولها (أن تكتم، أن تدوي، أن أخبرها) جعلته مشروعا مؤجلا قد لا يتحقق. هنا تمثل "بلانكا" نموذج المرأة الدّمية؛ أي المرأة المجسدة لثنائية الانفصال بين طرفي العقل والكيان المادي، لينتفي بذلك الجسد البيولوجي، ويطفو على السطح جسد بملامح نفسية؛ فـ"بلانكا" تحوّلت بفعل شفرة سكين حاد من طفلة بريئة إلى المرأة الدمية الفاقدة للإحساس، فجسدها غدا مومياء فاقدة للقدرة على التعبير. وتضيف في موضع آخر: **"كنت أخشى حتى الاقتراب من منطقة دفن القطع المبتورة مني، أحوم حولها من بعيد، أحدث جزئي المدفون، في التراب يئن من وجعي، صمت يضج بأصوات بعيدة مبهمة"** (بنور، 2020، صفحة 41)، فهنا وصل اغتراب الذّات إلى أقصاه، فالذات تنفر من أجزائها، وتفقد شعورها بجسدها، وتتحوّل إلى أنا مريضة تسكن اللاوعي، فهي ممزقة بين صمت الذّات المدوي في لا شعورها وبين جبروت مجتمعها، صراع بين وعيها وجسدها المنهك أفقدها القدرة على التعايش ليس مع الآخر فقط، وإنما تجاوز ذلك إلى الفضاء والوجود والتراب.

لقد تكرر لفظ "الصّمت" الذي ولّدته شفرة السكين الحاد بكثرة في المتن السردي، فهو حسب "إلين شوالتر" حرمان لغوي، فالمشكلة ليست في "أن اللغة لا تكفي للتعبير عن الوعي النسائي، ولكنها في كون النساء حرمن من استعمال كامل من المصادر اللغوية، وأرغمن على الصمت" (بن بوزة، 2016، صفحة 75). وهذا ما يبرر صمت البطلة السلبيّ، فهي لم تتمرّد على السلطة الأبويّة الذكوريّة، بل اختارت الفرار إلى مصير مجهول.

• نسق الهروب:

مَثّل البئر نسقا للهروب، فقد اتخذته "بلانكا" ملاذا وشبيها، فالبئر بأعماقه وظلامه يُجسّد سواد بشرتها من جهة، ويشي بأعماقها التائهة من جهة أخرى، ليتواشج البئر بسواده مع سواد العنوان (الزنجيّة)، ففي هذه البئر كانت تجتمع نساء القرية لترد الماء، ماء عكر غير صالح للشرب مثل حياة الزنجيّة الموشحة بلون السواد والغير صالحة

للحياة الزوجيّة، لأنها مبتورة الرغبة، مبتورة الهوية الجنسية التي تعكس فرادة جنسها عن الآخر/ الرّجل، لقد كان البئر ملجأ "بلانكا" لأنّه يُحاكي سواد همومها وتجربتها. وقد وضّحت من خلاله كيف يُمكن أن يتحوّل مصدر الحياة إلى مصدرٍ للموت والأمراض، حتّى إنّ أهل القرية يدفنون موتاهم بجانب البئر. تُشير إلى ذلك في قولها: **"تقف جماعات عند البئر، وتدفن موتاها كلّ يوم"** (بنور، 2020، صفحة 55)؛ فإذا كان الماء يُمثّل الحياة، فإنّه يشي بالموت والمرض، أمّا جسد المرأة الزنجيّة، فبعدما كان جسدا مانحا للحياة والمتعة، أصبح مصدرا للغربة والتشظّي الهوياتيّ والنّفسيّ **"وعدت أقتفي ظلّي أمامي نحو البئر التي أصبحت قريبة منّي، وهوّة سحيقة بداخلي، أصرخ في جوفها، تردّد صداها صوتي الخانق. لقد أفقدتني المرأة المكلومة، لحظتها الشّعور بأيّ إحساس، لأنّ ما عانيته في طفولتي كان يشبهها في عمقها، وفي صدى صوتي الذي يغيب في غيابها، هكذا كنت أشعر وقتها، وأنا أتبع ظلّي الذي لم يعد عتمة تغشي المكان أمامي؟"** (بنور، 2020، صفحة 18). وهكذا، جسّد البئر غرق البطلة في هواجس الذّات وصار ملجأ هروبها من ظلم العرف.

عالجت الروائيّة قضيّة التجارة بأجساد الفتيات الصغيرات لكهول مصابين بالإيدز، والهدف من ذلك نشر هذا المرض في تلك الأوساط، بهدف الحصول على أموال ضئيلة، تُشير إلى ذلك في قولها: **"الفتيات الصغيرات تُغتصب من رجال خصصوا لذلك (...) هؤلاء الرّجال مرضى بداء الإيدز (...) يتقاضون مبالغ زهيدة من أجل عملهم هذا"** (بنور، 2020، صفحة 49)، وكأنّ الكلّ كان ضدّ الفتيات الصغيرات فلم يكف الفقر والجوع وشفرة السكين، ليُضاف إلى ذلك الاغتصاب والإيدز، فكيف تتحمّل أجساد الفتيات الصغيرات هذا الجرم المسلّط عليهنّ من قبل رجال لا يعرفون الشفقة، ولا والرّحمة، ولا منطق لهم سوى المال، والمتعة فقط؟ كيف لهذه الأجساد الغضة، أن تتحمّل هذا الظلم المسلّط عليها؟ ولهذا، كان مصيرهنّ إمّا هروبا نحو الدعارة أو هروبا نحو الموت بالانتحار. وبذلك تحوّل الجسد إلى سلعة للعيون المترصّدة، فـ **"كلّ ما حولي يُرعبني، وعيون كثيرة تترصدني ككتلة لحم شهي للعيون الجائعة"** (بنور، 2020).

4-الأمومة المفقودة:

تاهت "بلانكا" في هذا الواقع الذي تعيش فيه المرأة الزنجيّة بين العنف الجسدي بسبب البتر والألم النفسيّ، لتكون بين مطرقة القيود الاجتماعيّة وسندان الواقع الاقتصادي والسياسيّ لطفولة مشتتة وفتوّة ضائعة وأنوثة مفقودة، وأمومة مجروحة خائفة من مستقبل مرير. وفي هذا تُصوّر "بلانكا" جسد الأمهات النحيفات وحالتهنّ عند موت صغارهنّ؛ فقد **"شحبت ملامح الصبيان، واصفرّت عيونهم الصغيرة، وهم يمتصون أثداء أمهاتهم الجافّة، ويتساقطون كأوراق الخريف فتبتلعهم الأرض"** (بنور، 2020، صفحة 14)، فبعدما كان جسد المرأة يمنح الحياة، تحوّل إلى رمز من رموز الموت، واليأس، والقنوط.

ومن جهة أخرى مثّلت صورة الأم صورة الخضوع والخنوع والاستسلام للسلطة الذكورية المترسخة في الهوية الجماعية، والضمير الجمعي للأمة. ويتضح ذلك من خلال قول "بلانكا" **"كنت أرفضها هي كأمي، وأرفض اقترابها مني. أعترض على وجودها بقربي قائلة لها: لست بأمي، أنت من سمح لهم بفعل ذلك على جسدها؟ المرّة القادمة، الدور على ابنتك الصغرى، هل تقبلين؟ هل ستتركينها بين يدي العجوز "مو"، وهي تصنع من آلامها ابتسامة الانتصار؟ في كلّ مرّة تقترب مني أعيد لها نفس الكلام، وما يكون منها إلاّ الاندهاش أو الصّمت حتى أنّي كرهتها وكرهت صمتها، وكرهت صمت الحيز الذي أنا فيه"** (بنور، 2020، صفحة 14). إنّ صمت الأم "تمثيل للإرادة الأبوية على أنّها إرادة مطلقة تتجسد في المجتمع والعائلة إجماعا مفروضا يرتكز على العادة والإكراه" (شرابي، 1992، صفحة 24).

5- غُربة الجسد/ نسق الرفض:

لم تعد "أرليت" المكان الذي تُريد أن تبقى فيه "بلانكا"، لقد أحسّت بغربة الجسد وهي تعيشُ في مسقط رأسها وغربة الأهل والخلّان، فذلك الجزء المبتور منها تحوّل إلى بتر في المكان أيضا، لقد اقتنعت أخيرا بالرّحيل إلى مكان آخر، في هجرة غير شرعيّة للجسد بحثا عن مكان أفضل، في رحلة تحدٍّ مريرة عبر الصّحراء والحرب أيضا. **"وبعد ساعات طويلة من الرّعب والترقب وصلت الشّاحنة وأفرغت تلك الأجساد المتعبة والوجوه المعبّرة إلى الحدود الجزائريّة"** (بنور، 2020، صفحة 120)، ليستقرّ بهم المقام في مدينة تمنراست الجزائريّة، شعرت "بلانكا" وعائلتها بالألفة في هذا المكان، لا لشيء سوى أنّ لون الجسد كان واحدا، إنّه اللّون الأسود، الذي تغيّرت مفاهيمه عند "بلانكا" من لون الحزن والبتر والموت إلى الجمال والألفة.

تتعمّق غربة الجسد أكثر فأكثر كلّما اتجهت شمالا، فجنوب الجزائر يُمثّل ألفة الجسد، أما الشّمال فيحكي لنا رفض الآخر للون الجسد المُغاير له، هذه المعاناة عاشتها "بلانكا" رفقة عائلتها في البليدة مدينة الجمال والورود، لتمثّل

لها مدينة الأشواك والعلقم بمرارة بياض جسد الآخر. تُصوّرُ "بلانكا" هذه المعاناة في قولها: **"هنا في الغربة، كلّهم بالنسبة لي غرباء على الأقل هم يعرفون أنّني غريبة الدّيار، لا وجهي ولا لون شعري ولا لوني المفحم يشبههم"** (بنور، 2020، صفحة 151)، لتسترسل الذات في الحديث عن حالة الاغتراب التي تعيشها في غربة المشاعر وغربة الجسد، ومكان لا يعترف بتباين جسد الآخر. تقول في موضع آخر بعد هجرتها غير الشرعية من نيجيريا إلى الجزائر: **"أعود إلى نفسي، إن ما كنت أحسه هنا هو غربة الروح والجسد، في حيزي، كنت أشعر فقط بغربة الروح، أما الآن، وفي هذا الحيز الكبير، خارجه كداخله أو ربما داخله أكبر من خارجه، مفتوح على نمط أرفضه وبقوة، ففيه أشعر بغربة الرّوح والجسد معا تتكالب عليّ الوحدة التي اخترتها طوعا هذه المرّة والحيرة التي فرضت نفسها عليَّ، داخل حيزهم الكبير، وأخرى فرضتها على نفسي داخل غربة الرّوح"** (بنور، 2020، صفحة 149). ففي مدينة "البليدة" تحوّلت الأجساد إلى أجساد هزيلة شبه عارية، لم تحتمل البرد والجوع وقسوة الآخر التي تنظر إلى أجسادهم بنظرة الكره والاحتقار والموت والمرض، لا لشيء إلا لأنّهم من بلد مزّقته الحروب الطائفيّة والتدخل الأجنبيّ والعادات والتقاليد، وهذا ما تؤكّد عليه أمّ "فريكي" **"أنا يا سيّدتي مجرد امرأة سوداء تائهة بين الحقيقة والخيال، امرأة تبحث عن الأمان هاربة من مرض الإيبولا الفتاك وداء السّيدا اللّعين ومن شفرة السّكين، ومن حروب لا تضع أوزارها أنا امرأة سوداء مزّقت جسدها طائفيّة الأعراق"** (بنور، 2020، صفحة 187، 188)، هذا هاجس الذّات المتشظية وذنب لون وجنس الجسد في ظلّ غياب القيم الإنسانيّة.

IV -الخاتمة:

سلّطت رواية "الزنجيّة" لعائشة بنّور الضوء على العديد من القضايا التي تتعلّق بالمرأة الإفريقيّة عموما والنيجريّة خصوصا، لنستخلص مجموعة من النتائج أبرزها:

- أعاد المنجز السردي "الزنجية" لعائشة بنور، التفكير في تمثلات الجسد الأنثوي، ويعد نصا ثقافيا يعكس أوجه السياقات الاجتماعية والثقافية المعقدة، فالرواية تتحدى السلطة الذكورية وتفضح الأنساق المضمرة التي تعيد إنتاج الهيمنة على الذات/ الجسد الأنثوي، أين تحول هذا الجسد إلى علامات متعددة الدلالات تكشف عن واقع قضايا الجندرية فيما يخص الهويات والاختلافات بين الهوية الذكورية والأنثوية من جهة، وبين العرق الأبيض والأسود من جهة ثانية، وبين تهميش صوت المرأة ودورها من خلال هيمنة البنى الأبوية والذكورية من جهة ثالثة.
- تعد رواية "الزنجية" لعائشة بنور أداة من أدوات كشف الخطابات الثقافية والاجتماعية التي أنتجت اللامساواة بين الجنسين، وكرّست مركزية السلطة الذكورية، وركزت على تمثيلات المرأة وجسدها، ولذلك فيمكن تصنيفها ضمن (النقد النسوي الثقافي)، والتي تسعى صاحبته من خلال قلمها التعريف بقضايا النسوية وصوتهن باعتبارهن من أكثر العناصر الاجتماعية تهميشا.
- ربطت الرّواية بين متخيل النص الأدبي وواقع البيئة الاجتماعية والثقافية التي صدرت منها ممارسات العنف والقمع الجسدي المسلّط على النّساء من قبل السلطة الأبويّة الذكوريّة، ومحاولة قمعها لجسد المرأة؛ حيث أثارت رواية "الزنجيّة" طابو ختان الفتيات وآثاره السلبيّة على المرأة، ممثلا في الموت واليأس والقنوط، والفقد المتمثل في بتر جزء من المرأة، والمؤدي بها إلى غربة وجوديّة ونفسيّة.
- تعدّدت تمثّلات جسد المرأة في الرّاوية في صور مختلفة أفصحت عنها إيديولوجيات العنوان، والغلاف، والأنوثة المبتورة، والأمومة المفقودة، وغربة الجسد عند الهجرة غير الشرعيّة ومركزية الاختلاف العرقي للآخر/ الأبيض في مقابل جسد الزنجيّ/ الأسود، مما يظهر ممارسات السلطة عبر التمييز العرقي والجندري معا.
- كشفت الرواية عن حضور الجسد (المرأة السوداء) من خلال تمثّلاته الاجتماعية والثقافية باعتباره حضورا ثيمي/ وتيمي، بوصفه ساحة للصراعات الداخلية/ الأزمات النفسية للأنثى، والخارجية التي تمثل رقابة وسلطة المجتمع. وقد عكس في أبعاده: أزمة الهوية، والوجود الذّاتي، والاجتماعي للأنثى الإفريقية المسحوقة تحت وطأة الأعراف الظالمة.

المراجع

1. أحمد مختار عمر. (1982). *اللغة واللون*. القاهرة/ مصر: عالم الكتب.
2. الأخضر بن السايح. (2005). *سرد الجسد وغواية اللغة (قراءة في حركة السّرد الأنثوي)*. الدار البيضاء/ المغرب: المركز الثقافي العربي.
3. بسام قطوس. (2002). *سيمياء العنوان*. سوريا: وزارة الثقافة.
4. بنور عائشة. (2020). *الزنجية*. الجزائر: دار خيال للنشر والترجمة.
5. دافيد لوبوترون. (2014). *سوسيولوجيا الجسد*. القاهرة/ مصر: روافد للنشر والتوزيع.
6. رانية العنوز. (13 أفريل، 2024). اللّون الفيروزي ودرجاته. *موقع موضوع*. تم الاسترداد في 13 أفريل، 2024 من: www.mawdoo3.com
7. سعيدة بن بوزة. (2016). *الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغلاب العربي*. دمشق/ سوريا: دار بينوى للدراسات والنشر والتوزيع.
8. سهام السامرائي. (2015). *العتبات النصية في رواية الأجيال العربية*. عمان/ الأردن: غيداء للنشر والتوزيع.
9. عائشة بنور. (2020). *الزنجية*. الجزائر: دار خيال للنشر والترجمة.
10. عبد الرزاق بلال. (2000). *مدخل إلى عتبات النص مقدمات النقد العربي القديم*. الدار البيضاء/ المغرب: إفريقيا الشرق.
11. هشام شرابي. (1992). *إشكالية تخلف المجتمع العربي*. بيروت/ لبنان: مركز دراسات الوحدة العربيّة.